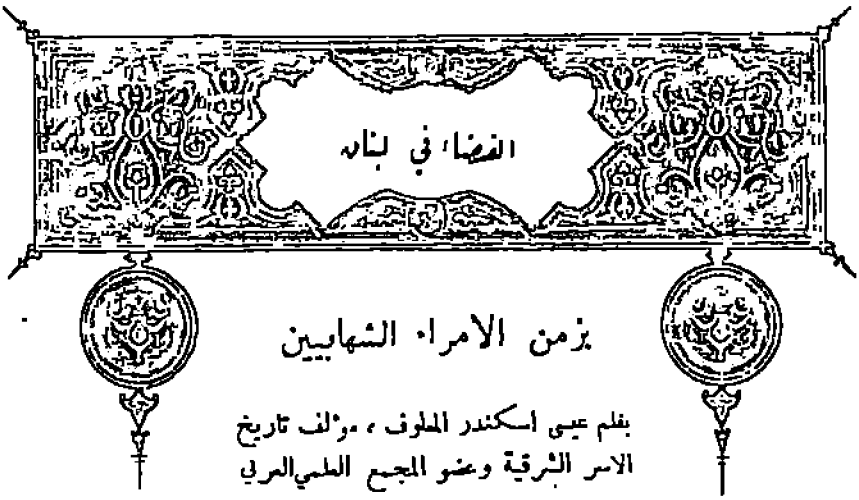

توطئة

خفاء ان الامراء الشهابيين كانوا خلفاء الامراء المعنيين في حكم لبنان . فتولاه الشهابيون من سنة ١٦٩٧–١٨٤٢ م . وكانوا يصطافون في دير القمر وبتدين ، ويشتون غالباً في مدينة بيروت . وكان مقرّ الايالة عكا ، ثم صيدا ، الى ان اتخذ الحاكم بيروت كرسياً له سنة ١٨٤١ . ومقاطعاتهم هي اقليم الخروب ، وجزين ، والتفاح ، في الجانب الجنوبي . وجبل الريحان ، والبقاع ، والمتن ، في الجانب الشرقي . وكسروان ، والفتوح ، وبلاد جبيل ، والبترون ، وجبة المنيطرة ، وجبة بشراي ، والكورة ، والزاوية ، في الجانب الشمالي . وكان سنجق جبل الشوف سبع مقاطعات هي الشوف ، والمناصف ، والعرقوب ، والجرد ، والمتن ، والشحار ، والغرب . وكان يحكم البلاد ، بعد الامير ، الاقطاعيون من مقدمين ، ومشايخ ، واعيان . وكانت الايالة تضيق وتتسع بحسب الشؤون السياسية . وللامراء والمقدمين والمشايخ امتيازات تجب مراعاتها . وكانت الدعاوى ترفع الى الاقطاعي ، فاذا لم ينصف المتداعين فالى الحاكم الاعلى . وهكذا كانت شؤون الرعية وادارتها بانظمة اصطلح عليها مما فصلته في كتابي : « دواني القطوف » [1] ، وفي ما كتبته من مقالات « تاريخ لبنان في ايام الحرب » [2] وفي

١) راجع «دواني القطوف» المطبوع من الصفحة ٢٤٥–٢٦٧ ٢) راجع كتاب

« تاريخ الاسر الشرقية » المخطوط .

ولقد امعنت في البحث عن القضاء مطوّلا لتعريفه في جميع ادواره من القديم الى يومنا . والآن اقتصر على ذكر اشهر القضاة من مسلمين ودروز ومسيحيين في عهد الامراء الشهابيين فاقول :

١

الشيخ احمد البربير

قاضي لبنان بزمن الامير يوسف الشهابي[1]

ان ما نشر في مجلة « المشرق » الغراء في هذه الايام الاخيرة من مقالات القضاء في لبنان ذكّرني بمقالة لي ، بل برسالة مطوّلة في تاريخ القضاء عند المسلمين من صدر الاسلام الى يومنا ، نشرتُ منها خلاصةً في مجلة « المحامي » الزحلية في بضع سنوات ، حتى وصلتُ الى القضاء في زمن الدولة العثمانية . واوقفتُ الباقي لانني اريد نشره مطوّلا لتطوّره في ذلك العهد الى زمن متصرفية لبنان ثم الى يومنا . ولقد جمعتُ كثيرًا من الاحكام والوثائق والفتاوي واشباهها ، ولا سيما في زمن قائميّ مقام النصارى والدروز وما بعدهما ، مما وقع لي من الاوراق القديمة ، فحفظتها بين مخطوطاتي التي جددتها بعد بيع قسم منها للجامعة الاميركية في بيروت .

وبهذه المناسبة اقول كلمة في بعض كبار القضاة والشعراء والمؤلفين ، منهم المرحوم الشيخ احمد البربير الدمياطي البيروتي ، الذي جمعت آثاره من نظم ونثر ووقفتُ على مؤلفاته . فوضعتُ له ديوانًا مطوّلا فيه المقاطيع والقصائد الرائعة . وهذه لمعة من ترجمته وقضائه في لبنان :

« لبنان : مباحث علمية واجتماعية » المطبوع من ص ١٤٢-١٤٨ في بحث « الاخلاق والعادات » لصاحب هذه المقالة .

[1] مقالة منتخبة من « الاخبار المدوّنة والمروّية في انساب الاسر الشرقية » في ١٢ مجلدًا ، ومن « مناوص الدرر في ادباء القرن التاسع عشر » لكاتب المقالة .

ترجمة البربير

ان اسرة البربير اصلها بنو القحف في بيروت ، وقبل ان احمد الاطباء الملقّب بالبربير، على لغة ايطالية في ذلك العهد[1]، كان يختلف الى جدّهم فلقب به ، وترك اسم القحف . وهي من اشراف المسلمين يلقّب افرادها بالاسياد ، ولا تزال بقيتها في بيروت ، وفيها ادباء معروفون اشهرهم المترجَم له .

ولد السيد احمد ابن السيد عبد اللطيف ابن السيد احمد الشريف البربير في دمياط (من القطر المصري) لان اباه كان تاجرًا فيها ، وذلك سنة ١١٦٠ ﻫ (١٧٤٧م) وكان نابغة بالحفظ والذكاء تُروى عنه اخبار غريبة في الاستظهار والمحاضرة . درس الفقه والحديث والادب على الشيخ عبد الحيّ بن ابي بكر بن احمد من آل فتح الله البيروتي اصلًا ، الدمياطي مولدًا وسكناً ، فنشأ المترجم له فقيهاً اديباً نظم الشعر في الثالثة عشرة من سنيه واجاد في حسن الخيال ، ودقة التصوّر ، ورشاقة التراكيب ، حتى كان نظمه من السهل الممتنع، ولازم اشياخاً من كبار العلماء في القطر المصري ، منهم السيد محمد مرتضى الزبيدي ، شارح الاحياء والقاموس ، ولم يكتفِ بمشايخ القطر المصري الاعلام فجاء بيروت ودمشق سنة ١١٨٣ ﻫ (١٧٦٩ م.) ولم يجد في بيروت ما كان يظنّ من العلماء الاعلام فنظم فيها بيتين يدلّان على استيائه من تأخر العلم فيها ، فقصد دمشق للاخذ عن علمائها ، فاتصل بالشيخ مصطفى الرحتي ، ومدح دمشق. ولكن وصول محمد بك ابي الذهب اليها ، واضطراب حبل الامن فيها ، اضطرّهُ ان يعود الى بيروت ، فانشأ مكتباً للتعليم وشهر بتفقهه وادبه فيها:

فنمي خبره الى الامير يوسف الشهابي ، حاكم لبنان وبيروت في تلك الايام ، فطلبه اليه وحاول اقناعه بتولّي القضاء ، فتنصّل حتى اكرهه عليه . فقبل ان يكون قاضياً بعد اللتيا والتي ، وبعد ان كتب على الامير الحاكم صكاً يتضمن شروطاً متى اخلّ بها ، فليس له عليه سبيل في البقاء قاضياً.

---

١) والبربير هو الحلّاق الذي كان يرسل الطل ويحجم المرضى ويفصد احيانًا ويضع الضمادات ونحوها.

ومن اهم تلك الشروط الكثيرة: انه لا يتعرض للدعوى بعد انفصالها والحكم بها في مجلس قضائه . ولا ينقضها بل يمضيها وينفذها.

ومنها: انه اذا كان الحقّ عليه يمتثل امر الشرع.

ومنها: انه لا يكرهه على لبس عمامة ولا فرجية مما كان يلبسه القضاة.

ومنها: انه يبعث رجلًا من اتباعه يجلس في المحكمة ليأخذ ما على الدعوى من السحت المشهور بين القضاة.

فامتثل الامير ذلك بطيبة خاطر . ولم يبدِ اقل نقض لشرط من شروط البربير الذي كان يودّ ان يخلّ الامير بامدها ليترك القضاء لانه كان مكرهاً عليه.

فاخذ يحاول ان يعتذر الى الامير اعذارًا كثيرة ليسمح له بترك القضاء والعودة الى التدريس والتأليف ، ومشافهة العلماء مما كان به وانقطع له . فلم يعره الامير اذناً صاغية حتى مل صبر البربير فقال يتشكى من ذلك المنصب:

قد عدلنا ، وما عدلت لغيّ ، وحكمنا بامر رب السماء ،
فشكا الناس حكمنا ، ولسوء ، قلّ من يرتضي بحكم القضاء!

وقال يهجو المرتشين وقد اجاد ما شاءت بلاغته :

ولم أرَ في البرية مثل شخصٍ اذا (برطلتهُ) اصلحت شأنهْ
بخردلةٍ كميزان السلاحي تميل كفتاهُ لما لسانه

وقال مستجيرًا يصف اهوال القضاء :

رماني زماني لا بجهدٍ ، فمن ذا اروم ومن اقصدُ؟
واوقعني في القضاء القضا ، وما كنت احسبه يوجدُ ،
وظيفة كرب لاثقالها ترافي لموتي ، الردى احمدُ.
وحسبي انقلاب صديقي لها عدوًا اذا فاته المقصدُ.
فباطنها الذلّ والابتلا ، وظاهرها العزّ والسؤددُ.
وذا ليس دأبي ، ولا ديدني ، ولا ارتضيه ، ولا اعتمدُ ،
وصعب على المرء تكليفه امورًا خلاف الذي يعهدُ!
وقد ضقتُ ذرعًا ، ولكنني بغير النيابين استجدُ

وهكذا بقي البربير يتشكى ويتظلم من منصبه مجاهرًا في كل مجلس واجتماع بكرهه البقاء في عمله هذا. والامير يعرض عن سماع شكواه ولا يقيله.

فكان البربير قاضياً ومفتياً في تلك الايام ، مشهورًا بانصافه وحسن آدابه

في منصبه ، وخشيته من الظلم والتعامل ، وانصرافه الى العدل ونصرة المظلوم ، واجراء الامور في مجاريها النظامية . ولقد وقفتُ في مباحثي عن الاوراق القديمة على احكام وفتاوى ووثائق تدلّ على براعته بالفقه والادب ، ووضع الاشياء في محلها . فصرف وقتاً كان فيه مكرهاً على العمل ، ولكنه لم يضجر ولا وارب ولا تزلّف . ولم يَرَ من الامير ما يحمله على الانسحاب واغاظته ، وهو الذي يداريه ويحترمه ويعزز مقامه .

تقدّم له العرائض المختلفة مستقيلاً ، فلم يقبلها . واخيراً عمد الى نظم مقصورة لطيفة املتها عليه القريحة الوقادة وضيق الذرع ، فحملها اليه وانشده اياها متأثراً ، قال منها :

تنبَّه ، أخيَّ ، فماذا العمى ... وقد بلغ السيل اعلى الربى !
تواريتَ في جنح ليل الذنوب ... ولم ترَ اشراق فجر الهدى ،
فكيف رضيتَ بترى قاضياً ... وفوقك بالقهر قاضي السما !
وكيف عجزت بحمل القميص ... وتقوى على حمل حقّ الملا !
واصبحت بالظلم في غاية ... ومرتبة ما لها منتهى !
اكلت النُشورَ ، وخنت النُشورَ ، وبعتَ الاجور ، بسوق الردى
وفرعون كان بذا مبتدٍ ... وفعلك ذا خبر المبتدا
لعا الله ما نلتَ من لذة ... حلت ، ثم مرَّت بسم الحشى .
فانت كدودٍ كدودِ الحرير ... يكدُّ ويهلكه ما بنى ،
وكالشمع يحرق اجزاءهُ ... ليتحف بالنور ذات السوى .
اما في الالى سلفوا عبرة ... لتلك دلّت على ما نأى !
فاين القضاة ؟ واين الملوك ؟ ... واين الحليّ ؟ واين الحلى ؟
واين الاحاديث في سردها ... وقد انبأتك بذم القضا ؟
فان قلت : اني امرؤٌ عادلٌ ، ... فلا تنسَ من حام حول الحمى
ودرء المفاسد تقديمهُ ... على جلب مصلحة يُرتضى !
وان قلت : اني امرؤٌ مكرهٌ ... عليها ، فدونك زحف القضا
وكلّ من تحلّتهم للذي ... احاط بما كان تحت الثرى ،
فقد رزق الطير في وكره ، ... وخصَّ الجنين بطيب الغذا .
وعش باليسير ، وأكل الشعير ، ... وترك الحرير ، ولبس العبا !
فذلك اهون من بيع دينك ، يا غافلاً ، بدنيّ الدُنى !

وهكذا الى آخرها وهي بليغة مؤثرة . فلما سمعها الامير اعترته رعدة

وخشوع ، وحنّ قلبه وغلبته الدموع . فلم يستطع البقاء على اصراره بعدم اقالة البربير ، فاقاله وعين له ما يقوم بكفاءته . فسرّ وشكره ونظم فيه قصائد ومقاطيع منها قوله :

اميرنا اكرم من حاتم له بنان ضاق عنها الفضا ،
بحلمه ادركتُ ما اشتهي وقد كفاني الله شرّ القضا .

ومنها قوله في قصيدة غيرها :

امير عظيم له رتبة على غيره صبة المرتقى
قصرتُ ثنائي على وصفه واعطيته في الورى موثقا
ولا غرو في كونه وارثاً ثنائيَ دون الورى مطلقا
فقد «اعتق» القلب من كرهه «وحق الولاء لمن اعتقا !»

آثار القاضي

ان للبربير مؤلفات نفيسة تفرّغ لها بعد تركه القضاء ، وكان متصلاً بادباء عصره وقضاته وفقهائه في بيروت ودمشق ، وله منزلة عند الحكام ونوادر معهم مثل احمد باشا الجزار ، والامير يوسف الشهابي ، وسليمان باشا والي عكا ، وكذلك عند الادباء والاعيان مثل الشيخ شاهين تلحوق ، ومخايل البحري الحمصي ، والشيخ عمر البكري ، والشيخ احمد الاحمدي المصري ، وغيرهم . وله معهم مساجلات ونوادر وله مؤلفات ورسائل منها : « الشرح الجلي على بيتي الموصلي » مما طبع . واما ما بقي مخطوطاً فكثير منها بديعية ومقامات ومناظرات وشرح قصائد و«تاريخ سليمان باشا» والي عكا ، ولم اعثر على نسخة منه مع كثرة بحثي عنه .

واما اشعاره ورسائله فقد جمعتها في (ديوان كبير) من مظانّ مختلفة ، ومن مخطوطات نادرة شاردة ، وهو معدّ للطبع فيه بدائع نظمه من ذلك قوله في الشعر الفقهي :

تقول الورى : قد فاته ارث جدّه من الفضل والتقوى وذلك مثبتُ.
فقلتُ لهم : شرط المواريث عندنا وجود حياة ، وهو بالجهل مبّتُ.

وقوله عاقداً قول حسان بن ثابت الانصاري لعلي بن ابي طالب عند قتل عثمان بن عفان :

يا من غدا لوداد اهل م زمانه متعرضا
لا تسكنن لمنكر ٥ان السكوت اخو الرضاه

وقوله في الصلح بين المتخالفين ، وتظرف ما شاء :

ولم أرَ الطف من مصلح توسّط بين حبيبي وبيني
تلطف حتى حكم النوم اذ سرى بين جفني وانسان عيني

وقوله في الحكم والشهادة متفنناً :

لاحكم عندي كحكم الصارم الذكر اذ فيه قطع نزاع البدو والحضر
وعادل الرمح لا تلنى شهادته فعنده خبر عن باطن البشر
هما رضيا لبان في الوغى وهما لمصطلى الحرب مثل السمع والبصر

وقوله في التشكي :

لا تلحُ من يتشكى ان التشكي دواء
واوجع الضرب ما لم يكونُ فيه بكاء

وقوله في القاضي مضمناً :

وقاضٍ باع أخراهُ بتبر الراح والنشوه
لنا احكامه قالت : رشاء الحاجة الرشوه (١

وهكذا كان هذا الفقيه مشهوراً طاف في بلاد العرب واجتمع بعلمائها وتخرج عليه كثيرون من الفقهاء والادباء ، واستجازه آخرون ونظم في اغراض مختلفة . وسكن في صالحية دمشق سنة ١١٩٥ هـ (١٧٨٠ م) الى ان توفي فيها سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) عن بنات توفين صغاراً ، لا كما ذكر العلامة الاب لويس شيخو اليسوعي في « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » : (١ : ٧٦) ان جد المرحوم مصباح التبير هو السيد احمد هذا ، بل هو من سلالة شقيقه السيد محمد الذي هو جدّ التبريريين الحاليين ، والله اعلم .

١) راجع ما نشرته من شعره في مجلة المشرق (٩:٢٩٦) وفي مجلة الآثار (٣: ٢٤٣) من ديوانه المخطوط الذي جمعته له .